الإنسـان والواجب
(رؤية في الواقع العربي)

الباحث الأكاديمي
حسنين جابر الحلو
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

المقدمـــة :

إن البحث عن مفهوم الإنسان في الفكر العربي الإسلامي سوف يكون مجرد عبث، وترف فكري إن لم يوضع في إطار حل إشكالية يعانيها الواقع العربي المعاصر. فالعودة إلى الماضي للتغني بأمجاده لن تكون في نهاية المطاف إلا نوعاً من الهرب من الواقع، واعترافاً بالعجز عن التفاعل معه والتأثير فيه.

والإنسان ابن الزمان، ووجوده في حقيقته مرتبط به، فهو لن يتمكن من معرفة ذاته وتحقيق تلك المعرفة إلا من خلال المعارف التي يكتسبها في حياته، وترتبط في سبل اكتسابها وكيفها وكمّها بالزمان الذي يعيشه. ولّما كان الزمان الذي يعيشه الإنسان قصيراً بالنسبة إلى عمر مجتمعه وحضارته، إن لم نقل بالنسبة إلى الإنسانية، فإن عليه أن يحرص على زمانه وأن لا يصرفه في العبث واللهو، وقد توجب عليه نتيجة ذلك أن لا يكتفي في اكتساب المعرفة بتجربته الخاصة إذ إن هذه التجربة، مهما تنوعت وتعددت، فإنها لن تكون كافية لمعرفة الذات، ولابد للإنسان إذن من الاطلاع على تجارب الآخرين وهو ما يمكن وضعه تحت اسم المعرفة غير المباشرة في مقابل المعرفة المباشرة التي تقدمها التجربة الفردية. ولا شك في أن أهم أنواع المعارف غير المباشرة الضرورية لمعرفة الذات هي تلك المعارف التي تربط تجربة الفرد الذاتية بتجارب أجداده وخبراتهم ومعارفهم، لأنه في واقعه وتصوره للكون والله والإنسان إنما يشكل امتداداً زمانياً ومعرفياً لهذه التجارب.

وأعتقد أن الوعي العربي في القرن العشرين قد تعرض لتزييف وتغريب، وهو ما جعله غائماً مشوشاً مقلقلاً لا يعرف على وجه الدقة من هو ولا ماذا يريد، فقد قُدِّمت له ثقافة بديلة حاولت دفع ثقافته إلى الوراء واتهمتها بالرجعية، وعزت إليها أسباب الجمود والتخلف، وكانت تلك الثقافة الغربية ثقافة فردية تعلي من شأن الفرد وتمجد العلم ومبرزاته على حساب الجماعة وإنسانية الإنسان، على حين أن الثقافة العربية الإسلامية تمجد الإنسان فرداً في إطار الجماعة من خلال منحه بعداً إلهياً مطلقاً يربط وجوده بوجود الله ويجعله خليفة له في الأرض.

المبحث الأول

الإنسان و الهوية الاجتماعية

أولا: الإنسان المجتمعي .

كلمة إنسان في كلام العرب يرجع إلى معنى الظهور، عكس الجن. ثم إنهم ذكروا للإنسان معنى آخر هو: النسيان. فقد أورد ابن منظور عن ابن عباس قوله: "إنما سمي الإنسان إنسانا؛ لأنه عهد إليه فنسي"، إذ يقول القرآن بهذا الصدد: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما". وبهذا قال الكوفيون: إنه مشتق من النسيان.لذا فإن معنى الإنسان في كلام العرب يعني الظهور، والنسيان.ومعرفة هذه النتيجة لها دور مهم، في تحديد ما يجب أن يكون الإنسان عليه، فما دام أن الظهور أصل معناه، فيفترض به أن يكون الظهور سمته البارزة، فيحقق هذا المعنى في:نفسه، وطريقته، وحياته. فيكون ظاهرا في : مبادئه، وقيمه، وأخلاقه، ودينه الذي يؤمن به، فلا يستخفي، ولا يتوارى، كما يتوارى الجن.

مثل المجتمعات البشرية في نموها وادراكهاكمثل طفل جاء إلى الحياة ليمر بمراحل عديدة (١) ، فبدأت الديانات مع الإنسان منذ فجر التاريخ ومنذ أن بدأ الإنسان يعي ويلاحظ ما حوله من مظاهر طبيعية ويتسائل عن القوى التي خلقت هذا الوجود. في عصور ما قبل التاريخ كان البشر يمارسون طقوس عبادات متعددة مثل عبادة النجوم والأوثان والجبال والأشجار والأسلاف.في الشرق الأوسط: العراق وبلاد الشام ظهرت الديانة البابلية السومرية والكنعانية وهي ديانات وثنية وفي مصر ظهرت الديانة الفرعونية التي كانت تعتقد بأن الإنسان يحيا بعد موته حياة ثانية ويحاسب ويثاب على حياته الأولى.أما في المشرق في الهند ظهرت الديانة الهندوسية والبوذية.

الديانات السماوية هي الديانات الثلاث بحسب التسلسل الزمني لظهورها اليهودية والمسيحية والإسلام وتسمى بمجموعها الديانات الإبراهيمية نسبة إلى إبراهيم عليه السلام وهي الديانات التي يعتقد مؤمنوها أنها منزلة من الله.الديانة اليهودية التي هي أقدم الديانات التوحيدية نزلت على النبي موسى عليه السلام في مصر أثناء وجود بني إسرائيل فيها يؤمن أتباع الديانة اليهودية بوحدانية الخالق كما هي مبينة في الأسفار الخمسة للتوراة والتي تحتوي أيضا على الوصايا العشر.والمسيحية هي إحدى الديانات السماوية التي يُعتَبَر يسوع المسيح الشخصية الأساسية فيها، ويُعتَبَر المؤسس لها. جذور المسيحية تأتي من اليهودية، التي تتشارك معها في الإيمان بكتاب اليهودية المقدس "التوراة"، الذي يدعى في المسيحية العهد القديم. الكتاب المقدس الأساسي للمسيحية يطلق عليه اسم: الإنجيل أو العهد الجديد، وهو بحسب العقيدة المسيحية مجموعة التعاليم التي أتى بها يسوع المسيح ونشرها بين أتباعه ثم قام تلاميذ المسيح الإثنا عشر بكتابة هذه التعاليم بإيحاء إلهي ونشروها في الأصقاع.اما الإسلام ظهر في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي على يد النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه واله وسلم ثم بدأ بدعوة الناس إلى اعتناق

عقيدة تدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأوثان. انزل الله إلى نبيه محمد بن عبد الله كتاباً عربياً اسمه القرآن يؤمن المسلمون و يحث أتباعه الالتزام بالتعاليم الإسلامية والقيم الأخلاقية كما هي مبينة في القرآن والسنة والفقه وهو ينظم حياة أتباعه بواسطة الشريعة الإسلامية.

وفعالية الفرد والمجتمع لها أهميتها الخاصة واعتبارها وقيمتها(٢)،وان الإنسان الذي اثبت الواقع انه قدرة فاعلة ومؤثرة في هذا الوجود (٣)،فالإنسان مثل معظم الرئيسيات العليا كائن اجتماعي بطبعه.ولكنه بشكل فريد بارع في استخدام نظم التواصل للتعبير عن الذات وتبادل الأفكار والتنظيم.كذلك يقوم الإنسان بتنظيم هياكل اجتماعية معقدة بالمشاركة مع مجموعات متعاونة ومتنافسة بدءا من تأسيس العائلات وانتهاءا بالأمم.التفاعل الاجتماعي بين البشر أسفر عن ظهور عدد واسع ومتنوع من المعايير الأخلاقية والقيم الاجتماعية والطقوس الدينية التي تشكل عمليا أساس كل مجتمع إنساني.كذلك يتميز الإنسان بحسه الجمالي وتقديره وتذوقه للجمال وهو ما يبعث في الإنسان الحاجة للتعبير عن الذات والإبداع الثقافي في الفن والأدب والموسيقى.ومن المعروف عن البشر أيضا رغبتهم في الفهم والتأثير على محيطهم البيئي وحاجتهم للبحث والاستفسار عن الظواهر الطبيعية ومحاولة فهمها ومعرفة القوانين التي تضبطها من هنا ظهرت العلوم والفلسفة والميثولوجيا والدين.وتميز الإنسان بالنظر للأمور بنوع من الفضول والتبصر أدى به إلى اختراع الأدوات الدقيقة وتطوير مهاراته ونقلها للآخرين عن طريق التبادل الثقافي.بالإضافة يعتبر الإنسان المخلوق الوحيد الذي يقوم بإشعال النيران وطهي طعامه والمخلوق الوحيد الذي يقوم بلبس الملابس واعتماد عديد من التقنيات التي تساعده على زيادة فعالية ما يقوم به من أعمال، المجتمع مجموعة الناس التي تشكل النظام نصف المغلق والتي تشكل شبكة العلاقات بين الناس، المعنى العادي للمجتمع يشير إلى مجموعة من الناس تعيش سوية في شكل منظّم وضمن جماعة منظمة. والمجتمعات أساس ترتكز عليه دراسة علوم الاجتماعيات. وهو مجموعة من الأفراد تعيش في موقع معين ترتبط فيما بينها بعلاقات ثقافية واجتماعية، يسعى كل واحد منهم لتحقيق المصالح والاحتياجات.

تقابل كلمة مجتمع في الإنكليزية كلمة society التي تحمل معاني التعايش السلمي بين الأفراد، بين الفرد والآخرين.. والمهم في المجتمع أن أفراده يتشاركون هموما أو اهتمامات مشتركة تعمل على تطوير ثقافة ووعي مشترك يطبع المجتمع وأفراده بصفات مشتركة تشكل شخصية هذا المجتمع وهويته.

في العلوم الاجتماعية، يميل العلماء لاعتبار "المجتمع" نظاما شبه مغلق semi-closed تشكله مجموعة من الناس، بحيث أن معظم التفاعلات والتأثيرات تأتي من أفراد من نفس المجموعة البشرية. وتذهب بعض العلوم أشواطا أبعد في التجريد حين تعتبر المجتمع مجموعة علاقات بين كيانات اجتماعية. تبرز في الإنكليزية كلمة أخرى قريبة في المفهوم هي الجماعة المشتركة community التي يعتبرها البعض التجمع أو الجماعة بدون العلاقات المتداخلة بين أفراد الجماعة، فهو مصطلح يهتم بأن جماعة ما

تشترك في الموطن والمأكل دون اهتمام بالعلاقات التي تربط بين أفراد الجماعة. بعض علماء الاجتماع مثل تونيز Ferdinand Tönnies يرى هنالك اختلافا عميقا بين الجماعة المشتركة والمجتمع ويعتبر أهم ما يميز المجتمع هو وجود بنية اجتماعية التي تتضمن عدة نواحي أهمها الحكم والسيطرة والتراتب الاجتماعي Social rank.

إنّ المجتمع البشري عبارة عن منظومة معقّدة غير متوازنة تتغيّر وتتطوّر باستمرار، حيث تدفع تعقيدات وتناقضات التطور الاجتماعي الباحثين إلى الاستنتاج المنطقي التالي: إنّ أي تبسيط أو تقليل أو تجاهل تعدّدية العوامل الاجتماعية يؤدي حتماً إلى تكاثر الأخطاء وعدم فهم العمليات المبحوثة. وقد استقرّ الرأي على أنّ اكتشاف القوانين العلمية العامة مستحيل في مجال دراسات التطوّر الاجتماعي مسيطراً سيطرةً شاملةً على المجموعة الأكاديمية وخاصة بين الذين يتخصّصون في الإنسانيّات ويواجهون بشكل مباشر في بحثهم كل تعقيدات وتركيبات العمليات الاجتماعية. فطريقة بحث المجتمع البشري كمنظومة بالغة التعقيد هي أن نعترف بمستويات مختلفة من التجريد ومقاييس الزمن. فالمهمة الأساسية للتحليل العلمي هي إيجاد القوى الرئيسية التي تؤثّر على أنظمة معينة لاكتشاف القوانين العلمية المبدئية عن طريق التجرّد من التفاصيل وانحرافات القواعد. طبعاً المجتمع البشري عبارة عن منظومة بالغة التعقيد بالفعل. فهل يمكننا وصفها بقوانين علمية بسيطة؟ إنّ المنجزات الحديثة في مجال النمذجة الرياضية تمكّننا أن نجيب على هذا السؤال جواباً إيجابياً محدّداً - من الممكن وصف التطوّر الاجتماعي بواسطة ماكرو قوانين دقيقة وبسيطة بشكل مقبول.

ثانيا : الإنسان المثقف:

إن مراقبة التاريخ الإنساني تمكننا من صياغة الملاحظة العامة التالية: في الحضارات التي كان فيها الحاكم إلهاً كان دور رجال الدين يقتصر على كونهم موظفين يتولون رعاية الأمور الدينية، أما في الحضارات التي فصلت بين الدين والدولة فقد كان رجال الدين يحتلون المكانة الرفيعة باعتبارهم يمثلون السلطة الدينية.

هذا ما نراه على سبيل المثال عند الفراعنة، فقد كان يُعتقد لديهم أن الفرعون من أصل إلهي، وله وحده حق رئاسة الطقوس الدينية، ولهذا فإن الكهنة لم تكن لهم سلطات واسعة، وإنما هم موظفون في خدمة نظام يترأسه الفرعون الإله. أما عند الإغريق فقد كان الدين مفصولاً عن الدولة، وهذا ما أعطى الكهنة سلطات واسعة تسيطر على المجتمع وتتحكم فيه.

وقد حاول أفلاطون في كتابه الجمهورية الجمع بين السلطتين الثقافية والسياسية، عندما دعا إلى أن يكون الفلاسفة حكام الدولة المثلى، ورأى أن هؤلاء الحكام هم طبقة متعلمة تعليماً عالياً ووافيا، فمعرفتنا

كيف سار الإنسان ذلك الشوط المديد المنهك ، وكيف غادر الغابة إلى المدينة ، والوحشية إلى الحضارة ، وفي أي قافلة مقتحمة مكابدة اجتاز الصعاب ، وتخطى الأهوال ، واقتحم المخاطر(٤).

فلكل حضارة مفاهيمها الخاصة التي تميزها من سواها، وإن كانت هناك نقاط التقاء تعود في جذورها إلى الإنسانية عموماً.

حيث يوصي ليفي ستراوس الباحثين "الأنثروبولوجيين" بأن أول اعتبار يجب ألا يغيب عن أذهانهم دائماً هو أن الحياة الاجتماعية تشكل نظاماً متكاملاً تترابط كلّ عناصره فيما بينها بشكل متناسق، وتضيف "الأنثروبولوجيا" الثقافية قاعدة أخرى تقول إن القيم والعناصر المكونة للنظام الثقافي متمثلة ومختزنة بأمانة في أعماق الفرد، وتشكل برنامجاً خفياً يضبط سلوكه وينظّمه بشكل آليّ تلقائي يقوم في الغالب على الفعل وردّ الفعل.

إن هاتين القاعدتين تفسّران العلاقة بين الهويّة والثقافة، فالعلاقة بين الإنسان وثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه ويعيش فيه هي علاقة أكيدة، وهي التي تحدّد معنى وجوده من خلال ضبط سلوكه اليومي في كل مجالات الحياة ولاسيما الثقافية، فالقيم والعادات وقواعد السلوك ومفهوم الأخلاق، والأفراح والأحزان والعلاقات مع الآخرين، والنظر إلى الله والكون تمثل في مجموعها مفهوم الثقافة بمعناها "الأنثروبولوجي". ولما كانت هذه المفاهيم لا وجود لها من غير الأفراد في المجتمع فقد تبيّن أن هذه المفاهيم هي عين الأفراد في المجتمع الواحد، بمعنى أنها تنظم سلوكها اليومي، وتضبط علاقاتهم الاجتماعية، وتحدد مواقفهم وأفعالهم وردود فعلهم في السلوك، وهذا ما يجعلنا نقول إن الثقافة الاجتماعية إنما تتجسد في مجموع الأفراد في المجتمع وإن العلاقة بين الثقافة والمجتمع علاقة أكيدة من خلال تمحورهما على الإنسان في ذلك المجتمع.

من خلال ما تقدم يمكن تقديم التعريف التالي للثقافة: الثقافة هي مجموع المعطيات التي تميل إلى الظهور بشكل منظم فيما بينها مشكّلة مجموعة من الأنساق المعرفية الاجتماعية المتعددة التي تنظم حياة الأفراد ضمن جماعة تشترك فيما بينها في الزمان والمكان. فالثقافة ما هي إلا التمثيل الفكري للمجتمع والذي ينطلق منه العقل الإنساني في تطوير عمله وخلق إبداعاته، فهي بهذا المعنى تختلط بالمجتمع فلا يمكن التفريق بينهما إلا في مستوى التمثيل، فهي بالتالي تحدّد هوية المجتمع في كافة أبعاده المادية والمعنوية.

ولما كان الفرد يعيش في إطار الجماعة، ويدخل معها في علاقة جدلية من حيث الوجود فإن هوية الفرد إنما هي جزء من هوية المجتمع. إن بناء شخصية الفرد في إطار مجتمع ما مرتبط ارتباطاً جذرياً بالسمات الثقافية الخاصة بهذا المجتمع، ونقصد بالسمات الثقافية نظام القيم الأساسية التي تسود في المجتمع، وتحكم طبيعة العلاقات التي فيه بين المفاهيم التالية: الله والكون والمجتمع، وعلى هذا فإن لكل

نظام اجتماعي ثقافي شخصية أساسية نموذجية كما يقول المعجم النقدي للعلوم الاجتماعية. ويضيف هذا المعجم قائلاً: إن كلّ مجتمع لديه ميل إلى بناء نظام ثقافي عام خاص به، حتى إن مجتمعات تعيش في مستوى واحد من حيث التقدم الاقتصادي والتقني يمكن أن تختلف فيما بينها في النظر إلى أمر واحد من جهة أنها تراه مختلفاً أساساً من وجهة النظر الثقافية. ويقدم مثالاً على ذلك مقارنة بين النرويج وإيطاليا، فيرى أن مسافراً يعطي حمّالاً ورقة نقدية يطلب منه صرفها بقطع نقدية سوف يرى الحمّال عائداً بهذه القطع في النرويج، على حين أنه في الأغلب لن يراه أبداً في إيطاليا.

إن ثقافة مجتمع ما تملك وجوداً حيّاً أشبه بالوجود البيولوجي للجسد البشري أو الاجتماعي، فهي تملك في داخلها تنظيماً خاصاً يجعل من مجموع العناصر المكونة لها شكلاً متكاملاً، فالإنسان الفرد يعيش ثقافياً داخل ذلك الوجود الحيّ للثقافة الاجتماعية التي تشكل هويته الذاتية، وهو في داخل هذا الوجود يبدع بشكل رمزي العالم الذي يحيا فيه، فالحقائق التي يعتقد بها، والأوهام التي يصدرها والإدراك التي يكونها ما هي إلا أفعال أو ردود فعل تصدر عنه من خلال علاقته بنظام الثقافة الذي ينتمي إليه. وعلى هذا فإن ثقافة مجتمع ما هي مصدر كلّ القيم والأفعال وردود الفعل التي تصدر عن الأفراد المنتمين إلى ذلك المجتمع، وهي بالتالي مقياس كل شيء فيه، ومن خلالها يجب أن يُفهم أو يُدرس.(٥)

و بعد أن أبرزنا العلاقة الوجودية بين الثقافة والمجتمع والهوية الذاتية، فإن من الضروري قبل الكلام على الهوية والثقافة في الواقع العربي المعاصر أن نتحدث عن أبرز سمات الثقافة، وهي سمات ضرورية في فهم ما يجري في ذلك الواقع. ومن أهم تلك السمات أنها إنسانية ومكتسبة وتطورية وتكاملية واستمرارية وانتقالية وتنبؤية(٦)، فهي إنسانية بمعنى أنها من صنع الإنسان ولا تنقل إلا بوساطته، وهي مكتسبة لأن الإنسان يكتسب ثقافته ممن يعيشون حوله منذ ولادته سواء في تلك الأسرة والحي والمجتمع والمدرسة، أي أن اكتسابه للثقافة ليس إرادياً، وإنما يتم بمساعدة الآخرين.

فلذلك لما كانت الوراثة في الإنسان متشابكة غامضة ، كان من الواجب أن نواجه بخشوع وتواضع وحرص((التدخل المرتقب))في صميمها (٧)،بحيث هي تطورية لا تبقى على حالها بل تتغير وتتطور، ولكن هذا التطور والتغير لا يتم في جوهر الثقافة بل في الممارسة والتطبيق، ويكون ذلك نتيجة لحاجات الإنسان الجديد الذي يعيش في المجتمعات الحديثة. وهي تكاملية بمعنى أنها تشبع حاجات الإنسان وتريح نفسه، لأنها تقدم له حلولاً وتصورات جاهزة تجمع بين كل المسائل والجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية و"البيولوجية". وهي استمرارية لأنها تنبع من وجود الجماعة ورضاهم عنها وتمسكهم بها ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، فهي بذلك تراث جماعي ووعي مشترك يرثه جميع أفراد المجتمع، ويساهمون في نقله إلى الأجيال التالية. وعلى ذلك فإنه لا يمكن القضاء على ثقافة مجتمع ما إلا بالقضاء على كل أفراده، أو تذويبهم في جماعة أكبر منهم وأقوى. وهي انتقالية لأنها تنتقل من جيل إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر،

فهي قابلة للتأثر والتأثير والانتشار بين الأمم الأخرى وخاصة عند توفر وسائل الاتصال الملائمة.

ونحن نعيش في مجتمع مكرس لحيازة الأملاك وتحقيق الربح (٨) قد يكون هذا الربح مفيدا عبر التاريخ ،ولعل السمة الأخيرة التنبؤية هي أهم سمات الثقافة عموماً، فبما أن الثقافة تحدد أسلوب الأفراد وسلوكهم في المجتمع فإنه بالإمكان التنبؤ بما يمكن أن يتصرف به فرد ما ينتمي إلى ثقافة معينة، لأن ثقافته تحتّم عليه أسلوباً معيناً تجاه كل مشكلة من المشاكل التي تقابله في حياته اليومية، وهي بالتالي :"تحدد التصرف الفردي والجماعي في إطار ثقافي محدد، وبخطة مرسومة أو خارطة يحملها الفرد معه، وبها يحدد مسيرته في الحياة العامة،وجب علينا أن نقول :إنه من الصعب جدا على العقل أو النفس أن تعيش في زمان غير زمانها (٩)لان الفرد جزء من المجتمع والزمن ،والفرد جزء من المجتمع إذن، وثقافته هي من ثقافة هذا المجتمع، وهويته إنما تحددها ثقافته، وإذن هناك علاقة جدلية بين ثقافة الفرد وثقافة المجتمع، كما أن علاقة جدلية أخرى موجودة بين هوية الفرد وهوية المجتمع، فما يقوم به الفرد يحدده المجتمع ويجب أن يرضى عنه وكل سلوك يخرج عن ثقافة المجتمع يرفضه المجتمع ويدينه ويقصي صاحبه عنه ويرفضه.

وهذه التغيرات جعلت الإنسان يقف حائرا أمام ظاهرة التغير الحياتي الذي ينطوي عليه التبدل المستمر للحياة والفناء (١٠).

إذن لا فرق بين الهوية الذاتية والثقافة على مستوى الفرد، كما أنه لا فرق بين هوية المجتمع أو الأمة أو الحضارة وثقافتها. فالثقافة كما رأينا هي التي تحدد معنى الوجود الإنساني، وتعطي الإنسان شعوره بالوجود والانتماء إلى مجتمعه وحضارته ، لذلك ليس للإنسان إلا إجراء الأسباب والدخول في سلسلة الحوادث(١١).

المبحث الثاني

الإنسان والواقع العربي

أولا - الإنسان ومفاهيم الأمة :

الإنسان، أرقى الموجودات وأكملها، له كمالان: كمال العَرَض/ الجسد، وكمال الجَوْهَر/ النفس. ويلتقي كماله الأول مع كمالات الحيوان من جهة النشأة العنصرية، أما كماله الثاني فهو خاص به يميزه عن باقي الكائنات، أتاه من جهة النفخة الإلهية..ولذا فإذا اعطي الإنسان حريته ، وابتعد عن تأثير الشهوات والمؤثرات الخارجية كالتربية فان فطرته ستهديه إلى التوحيد والارتباط بالخالق لامحالة(١٢).

ويسعى الإنسان باتجاه الكمال، فهو كنهه، وإليه يرقى بالعشق الذي وضعه الله فيه، ولكن كماله صعب لأن فيه ازدواج العَرَض والجَوْهَر والتزامهما معاً في آن واحد. ومن هنا فقد ابتعد الإنسان عن جوهره، ولم يهتم إلا بكمال عَرَضِه من حيث المأكل والمشرب ...

ومنح الله الإنسان كل مقومات الكمال والتقدم لتتجلى من خلاله عظمة خالقه ، وليؤدي الدور المناط

به في الحياة كخليفة لله ومسؤول عن عمارة الأرض (١٣) ، لذلك كان مفهوم الإنسان في الفكر العربي الإسلامي مسألة معقدة وواسعة، وتحتاج إلى أدوات معرفية خاصة بذلك الفكر يمكن من خلالها بحث المسألة،وبالنسبة للفرد مثلا فان له حقيقة من الداخل من قبيل الإعجاب بالقول ، لأنهما سرعان مايتواريان خلف الفعل والتصرف والسلوك (١٤)،فنحن عندما نشاهد كون الأمة هي مجتمع طبيعي من البشر، يرتبط بعضها ببعض بوحدة الأرض والأصل، والعادات واللغة.... من جراء الاشتراك في الحياة وفي الشعور الاجتماعي" من المتعارف عليه أن الأمة العربية هي مجموعة السكان التي تسكن في الوطن العربي (العالم العربي أو الأقطار العربية) الممتد من المحيط الأطلسي غرباً (حيث المغرب العربي) حتى بحر العرب شرقاً. في التعريف الحديث تشمل الأمة العربية الدول التي تتخذ اللغة العربية لغة رسمية وانضمت إلى الجامعة العربية. مرّت الأمة العربية بتاريخ طويل الأمد – مئات السنين قبل الميلاد - بدأ في الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق واتسع إلى شمال أفريقيا. كانت تنقل مجموعات وقبائل عربية من مكان إلى آخر عبر التاريخ لأسباب تجارية ولأسباب استيطانية ومعيشية، وبعد ظهور الإسلام كان السبب الرئيسي نشر الدين الجديد.و بعد انهيار الدولة العثمانية سنة ١٩١٧ وقعت الأمة العربية تحت احتلال – استعمار - دول أوروبية: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا، التي تقاسمت الوطن العربي بينها. ناضلت الشعوب العربية ضد الاستعمار، كان النضال محلياً وغير منظم، ففي ليبيا، مثلاً، كانت مقاومة ضد الاستعمار الإيطالي وفي مصر والعراق ضد الإنجليزي وفي سوريا ضد الفرنسي. حصلت كل المناطق العربية على استقلالها من الاستعمار الغربي المباشر، ما عدا فلسطين، وأقيمت دول عربية حسب تقسيمات قررتها الدول الغربية المستعمرة ومصالح محلية. يصل عدد العرب إلى أكثر من ٣٥٠ مليون نسمة. يعيشون اليوم في ٢٢ منطقة سياسية منفصلة هي: العراق، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن، السعودية، الكويت، البحرين، قطر، الإمارات العربية المتحدة،، سلطنة عمان، اليمن، الصومال، جيبوتي، السودان، مصر، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا وجزر القمر، ففي هذه الدول نجد المجتمع قادر على اختيار القرارات المصيرية والفعلية ولا شك أن الإنسان الصالح الذي تهدف الرسالة الإسلامية إلى بنائه ليس هو الإنسان الغني المترف، الذي يتمتع بطيبات الحياة، ويحيا في العيش الرغيد، ويتفنن في العلوم الدنيوية.. ثم هو بعد ذلك جاهل بربه، جاهل بالغاية التي خلق من أجلها على هذه الأرض، فمثل هذا الإنسان عند الله أحط قدراً من الأنعام.. كما قال عز وجل: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون}وقال تعالى:{والذين كفروا يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم}. ونفي الله لسمع هؤلاء وبصرهم وعقولهم ليس على إطلاقه، بل هم أهل بصر وسمع وعلم، ولكن ذلك كله محصور في أمر الدنيا.. كما قال تعالى عنهم :{ولكن كثيراً من الناس لا يعلمون* يعلمون ظاهراً من

الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} وقال عن عاد وثمود: {وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين} أي ذوي بصيرة وخبرة بالحياة الدنيا فهم أهل بصر بالزراعات والصناعات والبناء وشؤون الحياة والمعاش .

ثانيا:الإنسان وواقع الثقافة العربية:

إنّ وصفنا لواقع الثقافة العربية اليوم لا يعني زوال الثقافة العالمة العربية، وإنما يعني انحسارها وتجميدها، واتهام أصحابها وممثليها بالرجعية تارة وبالتخلف تارة أخرى وبعداء التقدم والتطور تارة ثالثة، إلى آخر ما هنالك من اتهامات ما كانت حيادية في أغلب الأحيان، وإنما مقدمات لإجراءات تعسفية كانت تتخذ بحقهم،وواقع الثقافة العربية جاء من خلال دراسة وبلورة حقوق الإنسان بفضل إبراز الذاتية الإسلامية (١٥)،ولعل خطورة ما تعرضت له الهوية الثقافية العربية خلال كل ما تقدم، لم يكن بالشأن الخطير إذا ما قصرنا أثره على الثقافة العالمة التي كانت بعيدة عن جمهور الناس في المجتمع، تعيش في مواقع خاصة تنأى بنفسها عن المجتمع بحجة أن المجتمع متخلف، وأنه يجب تغييره وتقويمه من خلال فرض الثقافة الغربية عليه، فقد كان المجتمع عامة أو ما نسميه بالثقافة غير العالمة يرفض تلك الثقافة الغربية ويتهمها لأنها ليست منه ولا تتفق مع نظرته العامة إلى الإنسان والكون والله، وظلت الثقافة العالمة العربية الإسلامية بخير على رفوف المكتبات وفي المخطوطات التي لم تنشر إلى الآن، وإن كانت في جزء منها تعرضت للتشويه على أيدي بعض المثقفين المستغربين عندما نظروا فيها من خلال مناهج غربية تخرجها من أطرها المعرفية التاريخية في محاولة لإبرازها في صورة مشوهة تسوّغ دعواهم بأنهم السبب في تخلف الأمة.

ولعل الضرر الوحيد الذي يمكن رصده في هذا المجال هو استبعاد الثقافة العربية التاريخية من توجيه الثقافة العالمة المسيطرة والثقافة غير العالمة، وقد رأينا أن العلاقة بين الثقافة العالمة وغير العالمة في مجتمع ما علاقة جدلية، وعندما تضطرب هذه العلاقة فإن الخلل سوف يحدث داخل الثقافة غير العالمة، إذ تفقد مرجعيتها التاريخية التي تشكل مقياساً وموجهاً ومقوماً وداعماً لها في وجودها اليومي الذي يتعرض باستمرار إلى هجوم الثقافة العالمة المعاصرة ذات المصدر الغربي،إذا كان ثمة خطر حقيقي يهدد الهوية الثقافية العربية اليوم، فإن هذا الخطر لم يعد موجهاً إلى الثقافة العالمة العربية المعاصرة، فهي في واقعها غربية وتغريبية لا أصالة لها، ولم تستطع أن تتأصل في المجتمع العربي المعاصر، وهي لا تشكل هويته الحقيقية، وإنما تلك الهوية المزيفة التي نجد أن بعض أصحابها من المثقفين المعاصرين إما أن يتوبوا في أواخر حياتهم ويعودوا إلى اكتشاف هويتهم الأصيلة، وإما أن يتمادوا في العمالة للغرب فينتقلون للعيش في أحضانه وتحت رعايته وكنفه، فيساعدهم ويقدمهم على أنهم ممثلوا الثقافة العربية المعاصرة، ويمنحهم الجوائز إمعاناً منه في تأكيد انسلاخهم، ولعل في ذلك الدليل على أن هؤلاء المثقفين ما كانوا يوماً يمثلون مجتمعاتهم.

أما الثقافة غير العالمة، فهي في اعتقادنا الحصن الحي الأخير للهوية العربية الأصيلة، ونعتقد أن الغرب يعرف ذلك، فهو يدرك أن الثقافة العالمة تحت وصايته ومعها ممثلوها من المثقفين العرب التغريبيين، كما يدرك أن السلطات العربية مدجنة، فهي لا تستطيع رفض ما يطلبه الغرب منها إن كرهاً أو طوعاً أو عن رضى ومباركة أو عن سياسة تراقب الواقع وتناور فيه، على اختلاف البلاد العربية، ثمة شرخ في الهوية العربية المعاصرة، فقد رأينا ما قاله ستراوس من أن الحياة الاجتماعية تشكل نظاماً متكاملاً تترابط عناصره بشكل متناسق، وأبرز عناصره هي الثقافة العالمة والثقافة غير العالمة، وهذا الشرخ على مستويين: الأول هو انفصال الثقافة غير العالمة في المجتمع العربي المعاصر عن رصيدها التاريخي وذاكرتها الثقافية المتمثلة بالثقافة العالمة التي هُمّشَت واستُبْعِدت واستُبْدِلت بثقافة عالمة غريبة ترفضها الثقافة غير العالمة في المجتمع أو على الأقل لا تقبلها أو في أحسن الأحوال تنظر إليها بحذر وتوجس، أما المستوى الثاني وهو الأشد خطراً فيتمثل في أن الثقافة غير العالمة/ أي الاجتماعية، عندما أصبحت من غير عمق تاريخي ثقافي، فقد أصابها الخلل وبدأت تُخْتَرق بوسائل عدة أهمها في اعتقادنا نظام التعليم العلماني وذلك الجهاز الأكثر خطراً على تلك الثقافة، الذي دخل كل بيت ليكون بذرة التفسخ في تلك الثقافة من خلال ما يقدمه من برامج يسيطر عليها دعاة الثقافة العلمانية أو التغريبية من ممثلي الثقافة العالمة المستوردة،ولقد أصبح العالم قرية اتصالية مترابطة أشد الترابط إذ إن عالمنا المعاصر هو عالم مترابط سياسيا واقتصاديا وثقافيا بحيث لم يعد هناك جزء بمنأى عن التفاعل والتأثر بالأجزاء الأخرى (١٦).

الخاتمـــة :

إن العودة إلى التراث لاستنباط مفهوم الإنسان فيه سوف يكون نوعاً من العبث والترف الفكري إن لم تكن تلك العودة مقصودة لغيرها وليس لذاتها. إن من يريد دراسة التراث لمجرد الدراسة أو التعظيم أو التقديس، فإنه سيعيش في الماضي ولن يتمكن إطلاقاً من عيش الواقع أو تصور المستقبل. ذلك هو المنظور الذي تنطلق منه هذه الدراسة، فهي تريد من العودة إلى الماضي الحاضرَ المستقبلَ، ساعيةً إلى اكتشاف مصادر القوة لدى الإنسان العربي المعاصر، داعيةً إيّاه إلى الارتكاز عليها في تخلصه من أزمته التي يعيشها على كل الأصعدة.

لا خلاف في أن الأمتين العربية والإسلامية تعيشان أزمة حضارية تتجسد في ما تعانيانه من تخلف ثقافي ومادي وسياسي. فهما في أغلب الأحوال تابعتان للغرب، تدوران في فلك ثقافته وتقنيته وسياسته. ولاشك في أنه من المستحيل استعراض ذلك كله في دراسة كهذه، كما أنه من المستحيل أيضاً النظر في كل الأسباب التي أدت إلى ذلك الوضع. على أن أهم هذه الأسباب، ولعله السبب المحور الذي تدور حوله وتنطلق منه كل الأسباب الأخرى، هو هُويَّة الفرد. إن من لا يعرف من هو لا يعرف ماذا يريد في هذا

العالم، وتسهل السيطرة عليه وتوجيهه فلا إرادة له، إذ إن الإرادة ترتبط بالوعي، فلا إرادة لمن لا يعي من هو. ولما كان الوعي يرتبط بالمعرفة فقد اقتضى أن السبب الأساسي في أزمة العربي المعاصر إنما هو معرفي. وإذا كانت المعرفة تعني مجموع الخبرات التي اكتسبها الفرد في حياته فإن ذلك يعني أيضاً أن المعرفة ترتبط بالتاريخ الشخصي للفرد، وبالتاريخ العام المشترك للأمة، إذا كان البحث يدور في مستوى الجماعة. ولما كان الفرد جزءاً من الجماعة، والأمة إنما تتشكل في مجموعها من عدد الأفراد، فقد اقتضى أن يكون تاريخ الفرد جزءاً من تاريخ الأمة، كما اقتضى أن تكون المعرفة الفردية المرتبطة بتاريخ الفرد جزءاً من الثقافة الجماعية المرتبطة بتاريخ الأمة. من هنا فإننا نستنتج أن البحث في طبيعة المعرفة، أسّ الوعي الفردي، إنما يقود بالضرورة إلى البحث في طبيعة الثقافة العامة أسّ الوعي الجماعي لدى الأمة.

الخلاصـــة :

إن البحث عن مفهوم الإنسان في الفكر العربي الإسلامي سوف يكون مجرد عبث، وترف فكري إن لم يوضع في إطار حل إشكالية يعانيها الواقع العربي المعاصر. فالعودة إلى الماضي للتغني بأمجاده لن تكون في نهاية المطاف إلا نوعاً من الهرب من الواقع، واعترافاً بالعجز عن التفاعل معه والتأثير فيه.

والإنسان ابن الزمان، ووجوده في حقيقته مرتبط به، فهو لن يتمكن من معرفة ذاته وتحقيق تلك المعرفة إلا من خلال المعارف التي يكتسبها في حياته، وترتبط في سبل اكتسابها وكيفها وكمّها بالزمان الذي يعيشه. ولّما كان الزمان الذي يعيشه الإنسان قصيراً بالنسبة إلى عمر مجتمعه وحضارته، إن لم نقل بالنسبة إلى الإنسانية، فإن عليه أن يحرص على زمانه وأن لا يصرفه في العبث واللهو، وقد توجب عليه نتيجة ذلك أن لا يكتفي في اكتساب المعرفة بتجربته الخاصة إذ إن هذه التجربة، مهما تنوعت وتعددت، فإنها لن تكون كافية لمعرفة الذات، ولابد للإنسان إذن من الاطلاع على تجارب الآخرين وهو ما يمكن وضعه تحت اسم المعرفة غير المباشرة في مقابل المعرفة المباشرة التي تقدمها التجربة الفردية. ولا شك في أن أهم أنواع المعارف غير المباشرة الضرورية لمعرفة الذات هي تلك المعارف التي تربط تجربة الفرد الذاتية بتجارب أجداده وخبراتهم ومعارفهم، لأنه في واقعه وتصوره للكون والله والإنسان إنما يشكل امتداداً زمانياً ومعرفياً لهذه التجارب.

وأعتقد أن الوعي العربي في القرن العشرين قد تعرض لتزييف وتغريب، وهو ما جعله غائماً مشوشاً مقلقلاً لا يعرف على وجه الدقة من هو ولا ماذا يريد، فقد قُدِّمت له ثقافة بديلة حاولت دفع ثقافته إلى الوراء واتهمتها بالرجعية، وعزت إليها أسباب الجمود والتخلف، وكانت تلك الثقافة الغربية ثقافة فردية تعلي من شأن الفرد وتمجد العلم ومبرزاته على حساب الجماعة وإنسانية الإنسان، على حين أن الثقافة العربية الإسلامية تمجد الإنسان فرداً في إطار الجماعة من خلال منحه بعداً إلهياً مطلقاً يربط وجوده بوجود الله ويجعله خليفة له في الأرض.

قائمة الهوامش

١-الإنسان الحائر بين العلم والخرافة /د. عبد المحسن صالح /ص.٧

٢- الإنسان كلا وعدلا/جودت سعيد / ص.٢٣

٣- الإنسان في أفاق الكتاب الأخضر/العربي حاج صحراوي / مصطفى يوغازي/ص١٥.

٤-انه الإنسان /خالد محمد خالد/ص.٤٥

٥- الإنسان والسلطة / د. حسين الصديق/ ص.٨

٦- الانثربولجيا الثقافية / د. إبراهيم ناصر /ص١٠١-.١٠٥

٥- ناصر. د. إبراهيم، الأنثروبولوجيا الثقافية، عمّان، الأردن، ١٩٨٢، ص/١٠١-.١٠٥

٧- البيولوجبا ومصير الإنسان /د. سعيد محمد الصفار/ص.٣٧

٨- الإنسان بين الجوهر والمظهر /اريك فروم /ص.٤١

٩- التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان /د. عبد الحسن صالح /ص.٥

١٠- التغير الاجتماعي/ د.احمد الخشاب / ص.٧

١١- الإنسان بين التوكل والمسؤولية / دار التوحيد /ص.٨

١٢- مؤتمر القدس السنوي الرابع / مواجهة التحديات المعاصرة / ص.١٤

١٣- بناء الشخصية ومواجهة التحديات / حسن الصفار / ص.٧

١٤- الإنسان ليس عقلا /سالم القمودي/ص.٤

١٥- الإسلام وحقوق الإنسان /د. محمد عمارة / ص.١٤

١٦- العالم المعاصر والصراعات الدولية /د. عبد الخالق عبد الله /ص٧.

قائمة المصادر

- القران الكريم .

١-الإنسان الحائر بين العلم والخرافة /د. عبد المحسن صالح /سلسلة عالم المعرفة /(١٥).

٢- الإنسان كلا وعدلا/جودت سعيد / دار الفكر المعاصر /بيروت / لبنان/الطبعة الأولى /.١٩٩٣

٣- الإنسان في أفاق الكتاب الأخضر/العربي حاج صحراوي / مصطفى يوغازي/المركز العالمي /طرابلس / الجماهيرية / الطبعة الأولى / ١٤٢٨.

٤-انه الإنسان /خالد محمد خالد/مطابع الكتاب العربي / القاهرة .

٥- الإنسان والسلطة / د. حسين الصديق/ منشورات اتحاد كتاب العرب / دمشق /.٢٠٠١

٦- الانثربولجيا الثقافية / د. إبراهيم ناصر / عمّان، الأردن، ١٩٨٢٥.

٧- البيولوجبا ومصير الإنسان /د. سعيد محمد الصفار/سلسلة عالم المعرفة /(٨٣).
٨- الإنسان بين الجوهر والمظهر /اريك فروم /ترجمة سعيد زهران / مراجعة وتقديم لطفي فطيم / (١٤٠).
٩- التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان /د. عبد الحسن صالح /سلسلة عالم المعرفة /(٤٨).
١٠- التغير الاجتماعي/ د.احمد الخشاب / الهيئة المصرية للتأليف والنشر/طبعة .١٩٧١
١١- الإنسان بين التوكل والمسؤولية / دار التوحيد /الطبعة الثانية /.١٩٨٤
١٢- مؤتمر القدس السنوي الرابع / مواجهة التحديات المعاصرة / مقالة /الإنسان الحائر بين العلمانية والدين /علي حسين غلوم .
١٣- بناء الشخصية ومواجهة التحديات / حسن الصفار / أطياف للنشر والتوزيع / السعودية/ الطبعة الثانية / .٢٠٠٧
١٤- الإنسان ليس عقلا /سالم القمودي/وكالة الأهرام للتوزيع / القاهرة .
١٥- الإسلام وحقوق الإنسان /د. محمد عمارة / سلسلة عالم المعرفة /(٨٩).
١٦- العالم المعاصر والصراعات الدولية /د. عبد الخالق عبد الله /سلسلة عالم المعرفة/(١٣٣).